الآراء الـــواردة في الـصـفـحـة تـعـبـر عـن وجـهـات نـظـر كـتـابـهـا ، وقـد لاتـتـفـق بـالـضـرورة مـع وجـهـة نـظـر الجـريـدة

هل الحــروب المجانيــة العربية مــن أسباب النكوصــ القومي؟

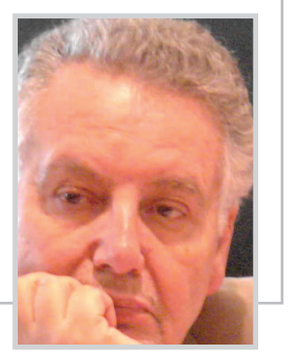

في مرحلة السنوات العشر التي امتدت من ١٩٧١-١٩٨١، شعر بعض المفكرين السياسيين بأن مفهوم القومية العربية ورابطها بدأ يضعف، وتحلّ محله روابط اقتصادية ومصالح مادية، بسبب ما طرأ على المجتمع العربي من تحولات اجتماعية واقتصادية وسياسية. وأخذ المفكرون العرب في هذه المرحلة يعيدون دعوتهم إلى الرابطة القومية، ويفلسفون هذه الدعوة، وينقلونها من خانة عالمها المادي المحسوس إلى خانة الفلسفة والأدبيات السياسية.

شاكر النابلسي

القومية: من الواقعية إلى التنظير الفلسفي

فنرى مفكراً سياسياً كمنيف الرزاز، الذي كان مفكراً واقعياً تطبيقياً في كتابه "تطور معنى القومية" في الخمسينيات، قد أصبح في منتصف السبعينيات من خلال كتابه "فلسفة القومية العربية" فيلسوفاً تنظيرياً للقومية العربية، وهو يرى أعلامها في أنحاء كثيرة من العالم العربي قد نكست عن ساريتها، ويلمح من بعيد دخول العالم العربي بأكمله في العصر الأمريكي، وسيطرة الأنظمة العربية المنتجة للبترول على مقدرات العالم العربي، من حيث التحكم في صحافته وإعلامه وثقافته وتربيته. ونعني بدخول العالم العربي هنا في العصر الأمريكي امتلاك أمريكا لمفاتيح إعادة بناء المجتمع العربي التي كانت أبرز ملامحها:

- إنهاء الحروب بين العرب وإسرائيل.
- فرض التسوية السياسية السلمية العربية – الإسرائيلية بالشكل الذي تراه أمريكا ضامناً لمصالحها في المنطقة.
- تزويد الدول العربية المنتجة للبترول بصفقات السلاح ذات الأثمان الباهظة بغض النظر عن حاجة هذه الدول لهذا السلاح لكي تمتص أكبر كمية ممكنة من السيولة التي توفرت لدى هذه الدول نتيجة لارتفاع أسعار البترول بعد عام ١٩٧٥.

دعوة القومية الاشتراكية

راح منيف الرزاز، يقاوم هذه الهجمة بالدعوة إلى "القومية الاشتراكية"، حيث ظلت الحركة القومية منذ نشأتها حتى منتصف القرن العشرين دون مضمون اشتراكي، ولعل الرزاز كان أول من ضمَّن حركة القومية العربية بالاشتراكية. فمن المعروف أن ميشيل عفلق، كان قد أشار إلى الاشتراكية في عام ١٩٣٦، ولكنه قرنها بالوحدة والحرية، ولم يقرنها بالقومية كما فعل الرزاز، الذي أوجز "القومية الاشتراكية" بالعبارات التالية:

"الحركة القومية الاشتراكية رافضة للإمبريالية والصهيونية، وحكم الأقليات المستوطنة. رافضة لمبدأ الاستغلال الدولي والاستغلال الطبقي. رافضة لاستعباد الأمة، ولاستعباد المواطن، وكبت حريتها وحريته، رافضة لتجزئة الأمة، وتقطيع أوصالها، عمودياً وأفقياً، إقليمياً أو طائفياً، أو عنصرياً". (الأعمال الفكرية والسياسية الكاملة، جزء ٢، ص٦٠٥).

الخبز قبل القومية

وفي هذه المرحلة، كان الرزاز لا ينكر العامل الاقتصادي في تأكيد الهوية القومية العربية، وهو ما عبَّر عنه في فترة سابقة بـ "المصلحة". فيؤكد لنا هنا، من خلال ربطه بين القومية والاشتراكية، وإطلاقه مُسمَّى "الحركة القومية الاشتراكية" على حركة القومية العربية، أن لا نهضة للحركة القومية دون التحرر الاقتصادي، وضمان "رغيف العيش":

فلا استقلال حقيقياً دون تحرر اقتصادي.

وأن الحركة "القومية الاشتراكية"، تستهدف تحرير الاقتصاد القومي، وتحرير الثروة القومية.

المنفعة والمصلحة قبل القومية

وقد سبق لمفكر واع في النصف الأول من هذا القرن أن تنبَّه إلى أهمية هذه "المصلحة" في الحركة القومية العربية، ونبَّه إليها، ودعا إلى العناية بها عناية شديدة. ففي زيارة لطه حسين لبيروت في عام ١٩٣٨، قال في تصريح لمجلة "المكشوف" مخاطباً الشباب، كما أورد السيد ياسين في كتابه:

إن كان لي نصيحة أسديها إليكم يا إخواني، فهي أن تتمسكوا بالواقع العملي، وتهملوا سواه، مهما كانت قوته العاطفية والخيالية. افهموا أن المنفعة تسيِّر الشعوب، فإن لم تفهموا هذا، فستُرغمون على فهمه غداً. (تحليل مضمون الفكر القومي"، ص٨٨-٨٩).

وكان طه حسين يعني بـ"المنفعة" هنا ما عناه الرزاز، قبل قليل بـ"المصلحة"، ثم بـ"القومية الاشتراكية" وما عناه العالم الاقتصادي لست List بـ "القومية الاقتصادية".

نقد القومية الاشتراكية

إلا أن "الاشتراكية القومية" أو "القومية الاشتراكية" التي أخذ بها البعثيون والناصريون على السواء في الستينيات والسبعينيات لم تخل من نقد مرير من قبل بعض المفكرين العلمانيين الذين اكتشفوا أن هذه الاشتراكية ما هي إلا عملية تركيب بين قوة السلطة وبين التراث في مجتمع متخلف جاهل.

وفي هذه المرحلة نشر عبد الله العروي كتابه "الأيديولوجية العربية المعاصرة" والتفت فيه إلى "القومية الاشتراكية" التي كان عبد الناصر ينادي بها، فانتقدها نقداً مريراً، ودعاها بـ"الاشتراكية القومية"، وسخر من تطبيقاتها في العهد الناصري، وقال أنها "مزيج غير مستقر لأجزاء شتيتة في وعي أجوف، ومجتمع كتيم، عديم الشفافية". وكان سبب هجومه هذا يتلخص في:

"أن الدولة القومية لكي تتصالح مع كل مجتمعها، ترفع راية الاشتراكية القومية، وهي عملية تركيب Synthèse بين القوة والأمانة للسلف. وتنادي الدولة القومية هاتفة: ستظهر عمليات التأميم عندنا بصورة بديهية، أننا نسيطر على القوانين الاقتصادية. وسيكون التخطيط وهو الشكل الأعلى للعقلانية الاجتماعية رمزاً لارتقائنا إلى النضج التاريخي. وستكون لدينا العدالة، ذلك لأن الدولة التي أخضعت الاقتصاد ستكون موزعاً عادلاً وحَكَماً بين الفئات الاجتماعية. ("الإيديولوجيا العربية المعاصرة"، ص ٦٢).

مرحلة ١٩٨٢-٢٠٠٠

في مرحلة ١٩٨٢-٢٠٠٠، بدأ التخلّي عن فكرة القومية العربية رغم الحرب العراقية – الإيرانية، وما أثارته من عصبيات ونعرات قومية، واكتسبت صفة حرب بين العرب والفرس، وحماية للقومية العربية. ورغمَ ذلك فقد كان الصوت القومي خافتاً خارج نطاق هذه الحرب وإعلامها. وكانت أصوات المناداة بالوطنية بدلاً من القومية مسموعة وواضحة، بعد أن أصبحت هناك عدة مفاهيم مختلفة للقومية العربية.

فمفهوم القومية العربية في العراق يختلف عنه في السعودية، ويتعارض مع مفهوم القومية العربية في سوريا الذي يتعارض مع مفهوم القومية في لبنان.

والقومية العربية في المشرق تُفهم على خلاف ما تُفهم عليه في المغرب العربي. كذلك فقد أصبح مفهوم الإسلام على هذا النحو. فنرى أنَ هناك إسلاماً عراقياً، وآخر مصرياً، وثالثاً سعودياً، وآخر كويتياً وجزائرياً.. الخ.

التخلي عن القومية كممارسة

كما بدأ التخلي عن فكرة القومية العربية كممارسة، بعد أن تبين زيف التطبيقات القومية التي قامت بها بعض الأنظمة العربية، وبعد أن دخل العالم العربي مرحلة شديدة الظلمة سياسياً واقتصادياً وفكرياً، نتيجة للحرب العراقية الإيرانية (١٩٨٠ –١٩٨٨) ونتيجة لحرب الخليج في عام ١٩٩١ التي دفع فيهما العرب ما كان فوق الأرض وما كان تحت الأرض. فقد بلغت خسائر الحرب العراقية – الإيرانية في بعض التقارير ٣٠٠ مليار دولار، وراح ضحيتها ٣٠٠ ألف شخص، وتشرّد مليون شخص. وبلغت خسائر حرب الخليج الثانية ١٩٩١ حسب بعض التقارير ٦٥٠ مليار دولار، وراح ضحيتها ١٢٠ ألف شخص، وتشرّد أيضاً مليون شخص. وبذا يكون العرب قد خسروا في هاتين الحربين المجانيتين المجنونتين، خلال عشر سنوات (١٩٨٠-١٩٩١) ، ٩٥٠ مليار دولار تقريباً. وبعد أن تبين أن فكرة القومية في السابق، كانت فكرة سرابية صوفية، ولا بُدَّ من طرح مسألة الأمة العربية بصورة جديدة، كما سبق وقال المفكر المصري/ الفرنسي سمير أمين .

الاستغلال الإيديولوجي للقومية

كان من مظاهر القول أن القومية العربية في السنوات السابقة من النصف الثاني من القرن العشرين وحتى الثمانينيات كانت فكرة سرابية صوفية، أن نادى بعض المفكرين بالتخلي عن فكرة القومية العربية التي استُغلت أيديولوجيتها أبشع استغلال سياسي عرفه تاريخ العرب، ودَفع بعض مفكري هذه المرحلة كالكاتب الليبي الصادق النيهوم إلى المناداة بـ "قطع هذه الشعرة" التي تُسمَّى القومية العربية والتشكيك في صلاح أيديولوجيتها للعرب، وربطها بالشعوبية التي تعني تقسيم العرب بين اثنين وعشرين شعباً، كلٍ واحد منها يختلف عن جاره، ويناصبه العداء أحياناً بقدر ما تشاء أهواء السياسة (الصادق النيهوم، "الإسلام في الأسر"، ص ٢٠٧).

فوضى سياسية وإفلاس مالي

وبعد ١٩٩١ ، دبت الفوضى في العالم العربي. ولم تقتصر الفوضى السياسية والإفلاس المالي والاضطراب الاجتماعي التي دبَّت في أعقاب حرب الخليج الثانية ١٩٩١ على العراق ودول الخليج فقط، بل شملت العالم العربي كله. فمن المعروف أنَ دولاً عربية كثيرة كانت تعتمد مالياً على المساعدات التي كانت تتلقاها من دول الخليج والتي توقفت بعد هذه الحرب. كما أن دخل العمالة في العالم العربي كان يعتمد بشكل رئيسي على أسواق الخليج التي أغلقت في وجه عدد كبير من العمالة العربية خاصة الفلسطينية والأردنية واليمنية والسودانية وغيرها، ما أدى إلى نتائج اجتماعية سيئة، على رأسها زيادة نسبة البطالة في العالم العربي، وزيادة معدلات الجريمة. وأدت هذه الفوضى إلى دفع كاتب كالصادق النيهوم إلى نسف مفهوم القومية العربية من جذوره، وإنكار وجود مثل هذه الأيديولوجية في التاريخ العربي.

فلنقرأ :

"إن كلمة القومية نفسها لا تملك نَسَباً مشروعاً في تراثنا العربي، فهي مجرد لفظة لقيطة تبناها العرب قسراً عندما دعتهم ظروف المقاومة ضد الاحتلال العثماني إلى البحث عن شعار إعلامي من شأنه أن يميز بين العرب وبين الأتراك."

بل زاد النيهوم على هذا بقوله:

"والثابت أن الرواد العرب الذين اعتقدوا أن رفع شعار القومية العربية كفيل بتوحيد الأمة، كانوا يقرأون تاريخ غرب أوروبا قراءة مقلوبة رأساً على عقب. وكانوا قد أغفلوا نتائج الثورة الصناعية وحركة الاستيطان معاً، وذهبوا وراء فكرة مؤداها، أن كل ما تحتاجه الأمم لكي تحقق وحدتها، هو أن تتذكر أن لغتها واحدة، وتراثها واحد، تلك النظرية المستحيلة التي صاغها ميشيل عفلق صراحة بقوله "القومية ليست علماً، بل هي تذكرٌ حي."

ومثل هذا الفكر ما كان له أن يخرج للناس في المرحلة (الناصرية) وهي المرحلة التي كانت فيها القومية العربية عماد الخيمة الناصرية.

وهل كان مثل هذا الكلام سيجد آذاناً صاغية تسمعه فيما لو خرج إلى الناس ؟

ومما يدلل على ضمور الفكرة القومية في هذه المرحلة، اختفاء الشعر العربي الطنّان الرنّان الممجد للقومية العربية تمجيداً وثنياً، نتيجة لاختفاء رواد هذه القومية، وعدم ظهور زعامات سياسية قومية تحظى بالاحترام، وتملأ الساحة السياسية، وتستأهل شعر المديح القومي، والتغني بالأمجاد. فقد اختفى في هذه الفترة شعراء قوميون كبار كمحمد مهدي الجواهري، وسليمان العيسى، وعمر أبي ريشة، وغيرهم، ولم ينبت بديل لهم، يتغنون بالقومية العربية على نحو ما كانوا يفعلون.

فنطازيــا ١١ سبتمبــر ٢٠٠١ أسئلــة فــي صناعــة العنــف

علي حسن الفواز

هل ادرك العالم المعاصر ان موجهات العنف بمستوياته السياسية والثقافية والايديولوجية باتت جزءا فاعلا ومهيمنا وموجّها للكثير من مسارات العلاقات الدولية؟ وهل تحولت مفاهيم صراع الحضارات كما اقترح مفاهيمها هنتغتون وحوار الحضارات على طريقة الليبراليين الجدد امام مفارقة حادة لا تعدو الا لانتاج المزيد من هذا العنف ومظاهره الضاغطة؟ هل دخل العالم حقا عصر الهيمنة الامبراطورية بعد ايام ايلول عام ٢٠٠١ ؟ وهل اكتشفت امريكا ان الحل الامبراطوري اضحى اكثر الحلول مثالية في هذا العصر السريالي جدا؟ وهل اراد العقل الانكلوسكسوني السياسي والطهراني ان يصدّق ما كانت تقترحه القراءة الماسونية القديمة من ان المعيش دون عدو أمر غير واقعي؟

هذه الاسئلة يبدو مقدمة في فوبيا العلاقات الدولية بعد انهيار سياسة الاقطاب الكونية، مثلما هي باعث على تحديد هوية العدو الجديد الذي يملك مواصفات عنفية ساخطة ومنفعلة تؤهله لحرب باردة او ساخنة، خاصة بعد ان اطمئن على الغرب الرأسمالي على موت الأعداء الآخرين.

فهل ما حدث في نيويورك وواشنطن كان يستحق هذا الانقلاب الكوني، او هو اعلان عن حروب عبثية قابلة، اكثر رعبا واكثر ضحايا، وربما اكثر تبريرا في التوصيف الثقافي والايديولوجي، لانها تملك خارطة اخرى، وضحايا آخرين وأوهاماً اكثر تحريضا على صناعة اعداء معينين واصدقاء وتحالفات تملك الاهلية والاستعداد لممارسة هذه الحرب دون عقد اخلاقية او حضارية..

يبدو لي ان فوضى الاسئلة وما انتجته من عواصف والتباسات واحتمالات مفتوحة وجدت نفسها امام احداث ايلول ٢٠٠١ وكأنها امام مشهد فنطازي تحتاج الى اكثر من وقفة والى اكثر من قراءة، ليس لان العقل الغربي/ الامريكاني استثمر هذه الحرب خاصة في عقدتها الايديولوجية للعودة الى هاجس (الاستعمارات) القديمة او ثقافات التبشير والقوة المفرطة، وما اقترحه علينا من دعوة غامضة لإنشاء امبراطورية للقوة والتنافذ المعرفي والاتصالي، تلك التي تشبه امبراطورية القيصر القديم!! بقدر ما ان هذه الاسئلة وضعتنا ازاء رعب الشك الكامل بمصداقية وحقيقة البحث عن ارضية مشتركة يمكن الاطمئنان اليها، لما نفترض ان نسميه بـ (التواصل الحضاري) وتبادل المنافع الثقافية، الوقوف دونكا قلق وريبة امام مفهوم الحضارة الثقافية والسياسية التي كان يقترحها العقل الغرب امريكي دائما، والتي انصرف معها العديد من مثقفي الليبرالية العربية للتبشير بسلعها السياسية وخطاباتها التي تدعو الى عصر لاحروب باردة فيه ولا ساخنة حقا، لانه سيكون عندئذ خاضعا لموجهات معلوماتية وثقافات عابرة للقارات والاوهام، والتي تقول ان العالم اصبح قرية كونية صغيرة وان الاسواق مفتوحة للجميع ،لا ضرائب ولا فيزات ولا شرطة كمارك او تفتيش على الحدود وعند المطارات، اذ سيكون المواطن الكوني قد احتاز على حقوقه المعرفية والدستورية والاخلاقية بوصفة كونية كاملة الدسم.

من هنا فإن قراءة ثقافة العداوة وثقافة العنف المسلح وربما ثقافة العنف المؤدلج في مرحلة مابعد احداث ايلول عام ٢٠٠١ ، هي التي تحتاج الى القراءة المعمقة ،بحثا في اسرارها ومرجعياتها وفي ملفاتها الامنية والثقافية والايديولوجية عن العوامل التي صنعت هذه الجبهات المفتوحة لحروب من العيار الثقيل وغير التقليدي ،مثلما هو البحث عن المبررات التي دفعت العقل الامريكي الى اعادة قراءة كل تاريخ ثقافوية العنف والتطرف والارهاب في التاريخ خاصة في (الشرق الاسلامي) او الذي بشرت به ثقافات الاستشراق منذ اكثر من قرنين، وكذلك الانفعال في اطار فرض موجهات معينة للعلاقات الدولية والدعوة الى ما يشبه تحديد نوع من السياسات والاقتصاديات التي تربط دول الشرق الاسلامي بمعنى محدد الى القطار القديم الذي صنعته بريطانيا في الهند، وطبعا اختيار هذه اللحظة التاريخية والحضارية لم يكن موفقا، خاصة بعد تداعيات الحروب السوفيتية الفاشلة في افغانستان وصعود مدّ العنف الاسلامي فيها وفي دول اخرى مثل باكستان والفلبين، مع الدعم الاميركي الغريب لدول تعد هي الصانعة والمغذية للارهاب مثل السعودية. كل هذا اسهم في صياغة مقدمات ما يمكن ان نسميه بسايكولوجيا الثأر، تلك التي استشرت عدواها، حتى اضحت جزءا من مثيولوجيا العقل المتطرف الذي كان يؤسس إجراءاته على وفق ما تمليه ايديولوجيا القوة والهيمنة المتجوهرة في شرطه الوجودي والعقائدي.

اذن ما الذي دفع امريكا لشنّ هذه الحملة التي بدأت بهوس، لكن لا أحد يعرف كيف تنتهي في صفحاتها الجديدة، لان العدو المفترض سيظل غير واضح الملامح، وليس هو ذات العدو الذي اقترحه المستشرقون، وربما اصبح هذا العدو متشظيا، واكثر توغلا في الايديولوجيا وفي انتاج العنف، فهو تارة مجموعة من العقائد المندثرة، وتارة هو جزء من عقد تاريخية ودينية وثقافية او هو مزيج اختلطت فيه الثقافات الشعبية المنفعلة المهيجة وغير القادرة على الاندماج على عالم مابعد الحرب الباردة، او نوع من النزعات الانتحارية التي يمارسها اصوليو العقائد التي مازالت تجد في الماضي سحرها واقنعتها وشفراتها الوجودية.

ان الجدل حول طبيعة الصراعات الحادثة مابعد زلزال برجي مركزي التجارة في نيويورك لاينفك يواصل انتاج المزيد من الصراعات الثانوية لكن الاكثر فاعلية ،خاصة في سياق تحويل اطرها من صراعات سياسية الى صراعات دينية وحضارية ،وبالتالي وضع العالم امام تحالفات وتخندقات جديدة ينتفي فيها الحديث عن تاريخ من الثقافات الليبرالية ونضال قوى اليسار وقوى الديمقراطية ،مقابل وضع الكل في سلة الشرق المثيولوجي السحري المعادي لحداثة الغرب ونموذج ثقافاته وافكاره وسياساته. اذن هل هذا كله مبرر للحديث عن عمومية صراعية تضغط باتجاه شن حروب عسكرية واقتصادية وايديولوجية بمواجهة انماط من السياسة الحاكمة ،وانماط من الإيديولوجيا اسهمت الثقافة الغربية/الامريكية وحروبها التقليدية في تخليق نواتاتها في الشرق القبائلي المترع بانماط الثقافات الحافظة للنوع بقطع النظر عن الطرق المؤدية الى ذلك .....

لاشك في ان الجميع يتفق على ان ما حدث في ايلول الامريكي لايحمل الاّ بصمة العصاب الارهابي الذي لايفكر ولا يحاور ولا يؤمن قدر اندماجه مع فرضية الموت الميتافزيقي والذي يؤسس ثقافته وخطابه على اساس نظرية ازالة المكاره (من وجهة نظره) بالقوة مقابل الانشداد الى الذات المهيمنة الطاردة لما سواها ، وهذه الفكرة الافتراضية المنسوخة من عقل ماضوي سري لايمكن ان تجد لها مبررات الاّ في ظل فرض هيمنات ثقافية متناقضة لاتؤمن بالآخر الحضاري لاتتحاور معه وتنعته بالكفر ،وان فكرة الحوار معه والتماهي مع حضارته هو نوع الاثم والايغال في الخطيئة،،،،

ولكن ما الذي فعله العقل الامريكي السياسي والثقافي والايديولوجي مع هذا النمط من الثقافات الاستلابية وهو المسؤول كما اسلفنا عن انتاج الكثير من الافكار والسياسات والبرامج التي تروج لعنف الايديولوجيا وعنف الدولة !! أليس هو المسؤول عن انشاء ودعم آلاف المدارس والمؤسسات التعليمية والثقافية(دعما سياسيا وماديا ولوجستيا) خلال الحرب ضد السوفيت في افغانستان وربما خلال سنوات الحرب الباردة ودعم كل الاتجاهات المناهضة للشيوعية ؟

أليس هو ايضا المسؤول عن تقوية الكثير من الانظمة القمعية لشعوبها ولقيم الديمقراطية ،مقابل نشاطاتها في دعم كل الاتجاهات المناوئة للاتجاهات الثورية ذات المرجعيات الماركسية؟

ان تناقض السياسات الامريكية وحساب مصالحها البرغماتي هو الذي اسهم في صنع هذه الفضاءات الثقافية والتعليمية الذي وضع الاسلام السياسي في سياق ايديولوجي لاشأن له سوى انتاج المزيد من ثقافويات العنف والارهاب..

وازاء هذا نجد ان العودة الى التعاطي مع فلسفة الحرب ،هي عودة الى تبني الثقافة التي انتجت هذه العودة !! اذ ان الحديث الذي بدأه فوكوياما بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وفشل التجربة الشيوعية السياسية والذي جعله مركزا للحديث حول نهاية التاريخ !! والذي بدا وكأنه الحديث عن انتصار قوة مركزية واحدة بعد انتفاء الحاجة الى الصراع تحت قاعدة (انتاج الرعب النووي والرعب الفكري) ...ولكن هذا السعي الى خلق فلسفات تؤمن بوجود هذه المركزية والنهاية غير التراجيدية لم تأت من فراغ طبعا ، بل ان فوكوياما الهيغلي الشاطر قد استعار هذه المقولة من افكار معلمه الاثير في الفلسفة المثالية ! والتي اقترحها بعد ان صنعت دولة بروسيا (المانيا الكبيرة) مركزها القومي العصابي وانتصرت في حروبها تحت راية السيد بسمارك !!

لكن هذه النظرية الاحادية سرعان ما تخلى عنها فوكوياما ذاته !! واصحاب المطبخ الايديولوجي الامريكي الذين توارثوا صنع الفلسفات (المتمردة) منذ هربرت ماركوز وصولا الى صاموئيل هنتغتون الذي اصطنع نظرية صراع الحضارات ،بعد ان اكتشف مع مريديه ان ثمة حضارات اخرى اكثر خطورة من الشيوعية وتحتاج الى حلبة صراع وثقافة صراع ومنظومة كاملة من ايديولوجيا الصراع ،تبدأ من تحديد فكرة العداوة ولا تنتهي عند تفكيك المركزيات القومية والعقائدية والثقافية لهذه الحضارات ،باعتبار ان ما اكتشفه دريدا الذي هو جزء من مشروعه النقدي للعقل المركزي قد استثمرته الثقافة السياسية باتجاه صحيح في نقد كل المركزيات المضادة ..

ان طبيعة ما حمله التحول الصراعي بعد احداث ايلول ،يعكس وجود ازمة استباقية كان يجري بحثها في اطار المؤسسات السياسية والمخابراتية الامريكية وطبعا بالتنسيق مع بعض المؤسسات الاوروبية ،بعد ان تصاعد نجم ما سمي بالاسلام السياسي خلال وبعد حرب افغانستان ،والذي كان مدعوما بشكل لوجستي مكشوف من امريكا ومن الدول الاقليمية على مستوى الدفع العسكري وعلى مستوى الدفع الثقافي والايديولوجي التي شيّد لاجلها الاف المدارس الخاصة في باكستان ..ولاشك في أن هذا التحول يعكس اساسا طبيعة العقل البرغماتي الامريكي وازمته في عدم التعاطي مع السياقات الواضحة لحركات التمرد السياسي وحركات التحرر الشعبي ، وهذه الازمة لها مثيلاتها ليس في آسيا فحسب ،، وانما موجودة ايضا في امريكا اللاتينية وافريقيا ، ولعل اية مراجعة بسيطة ودقيقة تساعدنا على بيان ذلك ،اذ ان انهيار الكثير من الانظمة الشعبية وبعضها منتخب ديمقراطيا!! يعكس تدخلات المخابرات الامريكية بدءا من ازمات كوبا المتتالية وانتهاء بانقلابات تشيلي والاكوادور وفنزويلا وبوليفيا والسلفادور ،، وهو كذلك ما حدث في الصومال ذاتها قبل سقوط نظام محمد سياد بري وصعود اشكال معقدة من الاسلام المسلح بقيادة شباب المجاهدين وغيرهم، اذ عمدت الاجهزة المخابراتية الى دعم كل اسباب انهيار النظام تحت حجج فك اشتباكه مع الاتحاد السوفيتي ، وبعد ان حدث فك الاشتباك هذا !! تخلى عنه الامريكان ليعيش وحدته ازاء صراعاته الداخلية التي اوصلته الى الخراب وحروب العصابات والقرصنات التي تهدد الآن التجارة العالمية.

ان تداعيات ما بعد (عصر ايلول) هي تداعيات شمولية انعكست على مجمل وقائع السياسة العالمية وطبيعة العلاقات بين الدول !! وربما حتى داخل النظام الاجتماعي والثقافي للدول الغربية ذاتها !! اذ ولاول مرة تضع المؤسسة الامريكية والغربية نظامها السكاني القائم على اساس الاندماج و قانون المواطنة تحت طاولة اجرائية لإعادة انتاج الثقافات داخل المجتمع الغربي، فبدأت مثلا ازمة الحجاب في فرنسا وازمات المهاجرين والجنسية وقانون العمل ،وفي الغرب الاوروبي بدأت ازمات العنصرية ،والتي بدأت في امريكا بعد احداث ايلول مباشرة وتعرض الكثير من العرب والمسلمين والآسيويين الى مضايقات خطيرة..

ولعل ما يحدث اليوم من ازمات خطيرة وعميقة داخل المجتمعات الغربية وتضييق الخناق على الاثنيات الاسلامية والعربية داخلها ، يعكس جوهر أزمة الصراع الذي افتعلته (الثقافة الصراعية) التي طرحها الهيغليون الجدد في الادارة الامريكية ،والذين اقترحوا نظاما اجتماعيا وثقافيا يبدأ من اعادة انتاج الخطاب الثقافي والاعلامي والايديولوجي / العقائدي وصولا الى الخطاب العسكري / فرض نظرية القوة ،، والتي هي تكرار لما انتجه العقل النابليوني والعقل البسماركي من محاولات اعادة صياغة نظرية (المركز القوي) وربما اجترحه الرئيس الامريكي السابق جيفرسون والرئيس الامريكي الأ خر هاري ترومان صاحب القنبلة الذرية في هيروشيما وناكازاكي !!

ولعل الاخطر من هذا ان هذه الثقافة قد دخلت في الاجندة السياسية والثقافية وحتى الاكاديمية والاعلامية الغربية !! اذ تعرض المواطنون الغربيون من دول غير غربية الى مضايقات كثيرة وخضوعهم لنظام المراقبة والحساسية الاجتماعية وصولا الى ما كشفت عنه جريدة (التايمس) اللندنية مؤخرا بأن جماعة ارهابية انكليزية هددت المسلمين الانكليز بمغادرة بريطانيا والاّ تعرضوا لـ (الذبح) وكأنها إشهار بالسلوك الذي تمارسه بعض الجماعات المسلحة بذبح ابناء الجاليات الغربية في البلاد العربية والاسلامية..

ومن هنا ندرك ان ما تطرحه الولايات المتحدة الامريكية من صياغات سياسية لإعادة تشكيل الخارطة الصراعية في المنطقة وفي الشرق الاوسط عموما تحت مسميات (الشرق الاوسط الجديد) و(خارطة الطريق) و(الانتصار على الارهاب) وكذلك تداول مفاهيم الحرية والديمقراطية والتعددية وغيرها يدخل في هذا الاطار الذي يحاول ان يعيدنا الى نظام (المراكز) او نظام العرابين وغيرها ،ولعل ما حدث في افغانستان والعراق وما حدث مؤخرا في لبنان وطبيعة التهييج الغربي للسيطرة على المكان الازموي او محاولة السيطرة على الآثار التي تركها فشل العدوان الاسرائيلي على لبنان وبروز حزب الله كقوة مقاومة مسلحة تهدد نظام المركزة الامريكية/ الاسرائيلية ،يؤكد هذه الحقيقة واشكالية التعاطي معها من منطلق الازمة والحل.

لقد افرزت مرحلة مابعد (عصر ايلول) عالما فاقدا للاطمئنان !! عالما يبحث عن رومانسيته القومية والثقافية ،ناهيك عن حلول لأزماته المعقدة في الوجود والمعيش ،اذ يعيش العالم الغربي المحمي بأحدث التقنيات (هستيريا الارهاب) وطبعا هناك مؤسسات ثقافية واعلامية تصنع لهذا الارهاب (مهيجات) تصطنع من خلاله مواقف تنعكس اصلا على جوهر الفكرة القديمة في اعادة صناعة (المجتمع النقي) الذي يقوم على اساس طرد (الاغيار) أي الاغراب من المهاجرين من هذا المجتمع رغم ان هذه النزعات الشوفينية والعنصرية تتعارض مع حاجات اساسية في هذه المجتمعات مثل محدودية السكان وضعف الانجاب فيها وكذلك توفير الايدي العاملة الرخيصة فضلا عن زيادة حركة رأس المال التجاري ..مثلما وضعت الاحداث الدول الغربية ذاتها امام عمليات انفاق هائلة للميزانيات الخاصة بمواجهة الارهاب ودعم البرامج المضادة له او دعم البرامج العسكرية ونقل الجيوش الى المناطق الساخنة كما يحدث الآن في افغانستان والعراق ولبنان ودارفور وتيمور الشرقية!!! ولاشك في ان هذا انعكس ايضا على الواقع السياسي العربي والاسلامي ،وتصاعد الازمات الاجتماعية والاقتصادية والصراعات الاثنية والعرقية والقومية،والتي تتمثل طبعا في جوهر التعاطي الامريكي القائم على اساس تفكيك المراكز الثانونية مقابل انتاج مراكز شمولية مهيمنة ..

ان من اخطر تداعيات مرحلة ما بعد ١١ /ايلول وشيوع التبريرات الفكرية لمفهوم ثقافة صراع الحضارات هو تصدع الخطوط الدفاعية للثقافات الليبرالية ودخولها تحت لافتة الطروحات الجديدة التي تسعى امريكا اليها في دمقرطة النظام العالمي الجديد وبالتالي فقدانها للروح الحية والخطاب الاستقلالي البعيد عن كل اشكال الهيمنة ، وكذلك اعطاء تأشيرة التموضع للتيارات الاصولية والسلفية في ان تكون صاحبة شرعية في اقتراح حروب دفاعية تجمع حولها انصارا ومريدين ، فضلا عن تبرير بروز ظاهرة العسكرة الحضارية بكل وجوهها بدءا من ظواهر العنف الدموي وانتهاء بالعنف الثقافي والمعلوماتي بما فيها استخدام وسائل الاتصالات الحديثة خاصة الشبكات المعلوماتية(الانترنت) التي اصبحت واسطة الشبكات الارهابية لنشر فكرها واهدافها وعملياتها !!

ان العالم حقا قد دخل في مرحلة من الفنطازيا السياسية والعسكرية ،وفقدت العلاقات الدولية آلياتها في النمو الطبيعي ووقفت امام تصنيفات جديدة لم تكن متداولة ومألوفة ،، اذ ان الدول التي تضررت من هذه التداعيات او انها دخلت في خانة الثقافات الثانوية التي تهددها المركزية الشمولية بالتفكك او الزوال وجدت نفسها ازاء حالة نكوصية مسلحة ،شرعت من خلالها باتجاه تبني مشاريع التسلح النووي واستخدام الطاقة النووية خاصة عند كوريا الشمالية وايران ،والتي تحاول الولايات المتحدة ايجاد السوانح الدولية لتحجيم أثرهما في تهديد المركز الشمولي المفترض وتقليل مناطق انتاج الازمات في العالم ..

ان العالم ما بعد ايلول يتجه الى الرعب ،وان اسئلته تنحو باتجاه قراءة المجهول ،وليس ثمة ضوء في افق ما تحاول ان تقدمه لنا الحضارة الكوزمو بوليتية التي يقال الآن أنها تجاوزت فلسفة العولمة وطروحاتها المائعة

آراء وأفكار
Opinions & Ideas

ترحب آراء وافكار بمقالات الكتاب وفق الضوابط الآتية:

١. يذكر اسم الكاتب كاملا ورقم هاتفه وبلد الاقامة .

٢. ترسل المقالات على البريد الالكتروني الخاص بالصفحة:

Opinions112@ yahoo.com